# بيرم فى الإسكندرية
# والإسكندرية فى بيرم

بقلم: د/ محمد زكريا عنانى

نود أن ننوه فى البداية أن بيرم التونسى، وعلى الرغم من كل ما كُتب عنه، من مؤلفات، ورسائل علمية، وبحوث متنوعة، لا يزال مَعِينا لا ينضب للعديد من الدراسات.

فإنه بتنوع الفنون التى تناولها والموضوعات التى عالجها، والبيئات التى تقلب فيها، يمثل ظاهرة هامة، من ظواهر إبداعنا الحديث، يمكن من خلالها أن تنقسم صورة العصر بكل ما حفل به من أحداث سياسية، وتحولات اجتماعية، واقتصادية، وفكرية، وأدبية.

وهناك فى حياة بيرم وفى إنتاجه الفنى، تلك المرحلة الإسكندرية المبكرة، التى لا نسعى للتأريخ لتفصيلاتها، بقدر ما نحاول التعرف على أصدائها.

وإذا كانت مرحلة النشأة، عادة ما تكون ذات أثر عميق، فى إنتاج الأديب، كل أديب، فإنها بالنسبة لبيرم التونسى، تتحول إلى قطب الرحى، وبؤرة الإشعاع، وقلب الرؤى، ومسارات الحياة.

والمرحلة التى نحن بإزائها، تتحدد من تاريخ مولده سنة ١٨٩٣ مع اختلافات طفيفة فى اليوم والشهر، فبيرم فى «مذكراتى والديوان الأول» ينص على أنه ولد فى ٢٣ مارس سنة ١٨٩٣ بينما يذهب كثيرون، منهم ميلاد واصف فى: «بيرم رائد الزجل»، وعبدالعليم القبانى فى «محمود بيرم

التونسى» وكمال سعد: فى «صفحات ضائعة من حياة بيرم التونسى» على أنه ولد فى ٤ مارس.

أما أحمد يوسف فى: «فنان الشعب محمود بيرم التونسى» ود. يسرى العزب فى «أزجال بيرم التونسى»، فيذكران أنه ولد فى ٤ مايو، ونؤثر الأخذ برواية بيرم نفسه، فى مذكراته التى فرغ منها، قبيل وفاته ببضعة أيام.

وهذا التحديد الزمانى يواكبه تحديد مكانى، لا خلاف عليه، فقد ذكر هو عن نفسه، أنه ولد بحى الأنفوشى بشرع البورينى بالسيالة «والذى يعرف منطقة بحرى جيداً، لا يرى معنى لقول د. محمد صالح الحابرى فى كتابه الضخم «١٣٧٠ صفحة» عن «محمود بيرم التونسى فى المنفى».

أن السيالة ليست الحى الذى ولد فيه الشاعر، وإنما هى منطقة من مناطق إسكندرية، تشمل مجموعة من الأحياء، يعد حى الأنفوشى واحداً منها، ويلاحظ أن ولادة بيرم سجلت فى حى الأزاريطة، على الرغم من أنه ولد فى الأنفوشى.

والنقلة التالية لأسرة بيرم، التى يتردد أنها تعود لأصول تركية، إذ أن أولها محمد بيرم الأول، جاء متطوعاً ضمن حملة سنان باشا، لإعادة ضم تونس إلى الدولة العثمانية، أما الانتقال للإسكندرية فتم عندما قرر مصطفى بيرم ـ جد الشاعر ـ الاستقرار فى هذه المدينة، بعد أن أدى فريضة الحج، وتزوج فيها من ابنة صاحب مصنع لنسيج الحرير، وكت ملكية هذا المصنع إلى ولديه محمود ومحمد ـ والد الشاعر ـ.

أما والدة الشاعر، فكانت الزوجة الثانية للأب، وماتت وهو فى السابعة عشرة، وكان الأب قد رحل قبلها بثلاثة أعوام، وتزوجت الأم من نجار ـ من أصل مغربى ـ لم يكن فيما يبدو بالرجل السيء، فإنه كان متعدد المهن، يصلح الساعات، ويعمل فى طلاء البيوت بالجير، ويمارس مهنة جبر العظام، وسعى

لأن ينقل لابن زوجته، الكثير مما يعرف، ودربه على مواجهة الحياة، مهما قست واكفهرت، فى ذلك يقول الشاعر فى مذكراته:

« **هذا الرجل لقننى درس الحياة الأول.. ولذا فأنا إذا انسد أمامى باب، نفذت من البلكونة، وإذا استعصى علىَّ الأمان، انزلقت من تحت عقب الباب** ».

لكن الانزلاق من تحت عقب الباب، كثيراً ما قاده إلى التمرغ فى أوحال الحياة، وقلة الخبرة كثيرا ما أوقعته فى « مزالق » لا حصر لها، فإن الفتى الصغير، يبيع نصيبه فى مصنع الحرير، ليفتح دكاناً يبيع فيه الزيت، ويمكن له عمله هذا من العودة إلى غرامه القديم.. القراءة، فقد كان عاشقاً لها، منذ أن دفع به أبوه إلى الكتاب، لكن قسوة الشيخ جاد الحق، حالت دون استمراره فى الطريق، الذى كان يريده له والده، أن يكون فقيها.

وقد ضاق بالتقعر، فى طرق التدريس القديمة، « وكان فعلن ماض ناقصون مبنيون على الفتحى لا محل لهو من الإعراب ».

وترددت أصداء القسوة وأسلوب التعليم العقيم فيما بعد، عندما كتب ساخراً فى « **السيد ومراته فى باريس** ».

« **الواد راخر ما يفهمش، يقوموا نازلين عليه بالعصاية، واللكاكيم والمراكيب، مع أن كلمة (كان) الواد عارفها وفاهمها طيب، من قبل ما يشوف خلقتهم، لكن لما يلاقيهم بيعلموا بالشكل ده، يفتكر نفسه حمار، وإن حضراتهم العلماء الكبار، اللى عندهم حل الطلاسم، يقوم عقله يتبرجل ويضيع، ولا يعرف يروح ولا ييجى، ويكره الدروس والمعلمين، ويهرب على قد ما يقدر** ».

لكنه إذا كان قد هرب من الكتاب والمعلمين، فإنه لم يهرب من التذوق والتعلم، والتردد بصورة غير منتظمة، على الدروس التى كانت تلقى فى مسجدىْ المرسى أبى العباس، وياقوت العرش.

والاطلاع على ما فى المكتبات، خصة مكتبة البلدية «وكانت آنذاك فى شارع سيدى أبى الدرداء» ومما قرأه آنذاك، كتاب فى العروض، كان له أعمق الأثر فى نفسه، ويقول عنه:

**كان هذا نقطة تحول فى حياتى الأدبية، إذا لم أكد أقرؤه، حتى تمكنت من عمل مختلف الأزجال والأشعار.**

كما وقع فى يده وهو فى محل البقالة كتاب كان ضمن ما يستخدمونه فى لف البضاعة للزبائن، وكان هذا الكتاب عن ابن عربى ويقول عنه:،

**وكان هذا الكتاب نقطة تحول فى حياتى، إذ رغَّب إلىَّ حب التصوف، ودراسة الإسلام وأحوال المسلمين، على نمط يتناسب مع العصر ويتفق وروح الجماعة التى تعيش فيه.**

وإذا كانت هذه القراءات، قد أمدته بنصيب من الثقافة، فإنها لم تطعم له فماً أو تقم له أوداً، ويجرب مهنة أخرى هى صيد السمك، على غرار ما كان يصنع معظم أهل «السيالة» ولا أصدق منه، فى التعبير عن تجربته تلك، التى يقول عنها:

**وفكرت فى وسيلة أخرى للعيش، وحاولت أن أحترف مهنة أهل الحى، وهى الصيد، فشاركت صياداً فى قارب صيد يملكه، بل وخرجت مرة مع صيادى الحى ليلا، لمشاهدة مهنة الصيد لأول مرة، ولكن الجو كان بارداً ومظلماً وعاصفاً، والصخور تحيط بالقارب الذى كنت فيه، وأنا لم أكن أعرف السباحة، ويتعود الصيادون على هذه الظروف، منذ نعومة أظافرهم.**

**فوجدت أننى سأدخل مهنة قاسية؟ لأتعلمها بعد أن كبرت، ووجدت أن من العسير تنفيذ ذلك، ففشل مشروع الصيد، كما فشل مشروع البقالة، ومن قبل مشروع تعليمى فى مصنع الحرير.**

وإذا كان الفشل قد لازمه، فيما سعى إليه من مهن وأعمال، فإن الباب الوحيد الذى فتح أمامه، وبدأت تشرق منه أبواب النجاح هو باب الأدب، فقد رحبت جريدة «الأهالى» السكندرية، التى كان يرأس تحريرها «عبدالقادر حمزة» بنشر قصائد بيرم، الهادرة الناقمة، على الاستعمار، والقهر، والتخلف.

كما فتحت له كذلك أبواب جريدة سكندرية أخرى هى «النجاح» التى كان يصدرها «إسماعيل صبرى الزواوى».

كان ذلك سنة ١٩١٦ على وجه التحديد، وهذا التاريخ يحدد بداية المرحلة السكندرية، وهى مرحلة يغلب عليها التعبير بالفصحى، والملاحظ أن شهرة بيرم فى الزجل، جعلت هذا الجانب يتوارى، على الرغم من أنه درس فى كتيب أصدره عبدالفتاح غبن «بيرم والفصحى» وعالجه بتوسع «عبدالعليم القبانى» فى كتابه عن بيرم التونسى، والثابت أن جانباً من شعر الزجل، نشر آنذاك دون أن يحمل اسمه، أو كان يقدمه بمكافأة، أو من غير مقابل، الله أعلم.

فمن ذلك، ما يرد فى كتاب ميلاد واصف عن «بيرم رائد الزجل» من أن شيخاً أزهرياً، طلب من بيرم أن يكتب له قصيدة، فى رثاء رفيق له، لكن الشيخ ردها إليه طالباً «شعرا يفتت الأكباد» فكتب له بيرم قصيدة مطلعها:

**هال البرية خطب أطفأ الشهبا**

**والأرض مادت ومال الكون وانقلبا**

ففرح بها الرجل أيما فرح، ونوه بما فيها من مبالغات، لعلها كانت نقيض ما كتبه بيرم أولاً، من تعبير عميق عن الحزن والفراق، بعيداً عن ضجيج الجمل الرتيبة، والأفكار العامة الخاوية.

وإذا كان كثيرون قد ذكروا، أن بيرم نظم قصيدته الأولى عن المجلس

البلدى، وهو فى السادسة عشرة من عمره «فإن التنقيب» قاد إلى كشف قصائد كثيرة لبيرم، نشرت قبل النص الاول من المجلس البلدى ـ وسنعود إليه ـ ظهرت تحمل اسم بيرم، أو تحمل الحروف الأولى من اسمه التلاثى: «م. ب. ت»، وبعض آخر اغتصبه آخرون، أو نشر بدون ذكر اسم مؤلفه، لكن القرائن الفنية، أو حديثه هو، وحديث معاصريه، يردها إليه.

ومن هذه القصائد المبكرة، مما نشر فى «الأهالى فى أخريات سنة ١٩١٦م»:

أيها الفقير كن جلداً ... راضيا بالقضاء والقدر
لك ثوب يميت لابسه ... واهن لا يخاط بالإبر
فتنفس إذا بكيت عسى ... تصطلي فيه نار مستعر

كما نشر فى الآونة نفسها، قصيدة قصصية عن «غنى حرب» كان فى الحضيض، ثم أقبلت عليه الدنيا، بين يوم وليلة.

لي جار كنت أواسيه ... من مالي دون الجيران
مأواه إذا ما الليل أتى ... كوخ مصدوع الأركان
في يوم جئت لأنظره ... واراه بقلب جذلان
فحزنت لإني لم أره ... ورجعت حليف الأشجان
ويئست من اللقيا حتى ... موتي وتقضى عامان

وكانت هناك عوامل كثيرة، تؤذن بتفجر الثورة عما قريب، فقد عانى الشعب من القهر، وفساد الإدارة، وغلاء الأسعار، وهذا كله يبين بصورة واضحة من خلال بيرم، وما كتبه بيرم ساخراً، من لجان التقدير وفرض الأسعار،

فى منظومة نشرت فى أخريات سنة ١٩١٧ أولها:

تعـريفـة مـحكمـة التـقـدير | من لجنة التعسير لا التيسير
اجتمعت في أسعد الأوقات | وحددت سعر الغذاء كالآتْ
القمح كل حبة بدرهم | ومثله الأرز وحب السمسم

ومن أبياتها، التى تنبض بالسخرية، والمرارة:

من اشترى صاعاً من النخالة | فذا يُعد من ذوي النبالة
والسمن والزبد وكل دهن | محرم تحريم بنت الدن
لا يذكر البيض بشيء ذاكر | فالطير والدجاج كل شيء عابر
ويكتفى الفقير بالعظام | واللحم قد يراه في المنام

أما قصيدة «المجلس البلدى» فإنها نشرت سنة ١٩١٧ وبيرم فى الرابعة والعشرين من عمره ـ لا فى السادسة عشرة كما تردد فى أكثر من مرجع ـ وكان «المجلس البلدى» فى الإسكندرية وجل أعضائه من الأجانب، قد اشتط فى فرض الضرائب على تجار المدينة، وشاع الحجز على التجار ـ ومن بينهم بيرم ـ حتى أفلس الكثيرون، إذ عجزوا عن السداد.

وليس صحيحاً ما ذهب إليه ميلاد واصف، من أن جريدة الأهالى، نشرت هذه القصيدة «من غير إمضاء» بل جاءت تحمل توقيع «بيرم».

وفى ذلك يقول: «د/ محمد صالح الجابرى» أن بيرم كان على علاقة بجريدة الأهالى، قبل نشر قصيدة المجلس البلدى، إلا أن هذه الجريدة، كانت تنشر بعض هذه القصائد منسوبة لبيرم، وبعضها الآخر، كانت تنشره بأسماء أخرى، ولكن قصيدة المجلس البلدى، كانت تتضمن نقداً مباشراً للسلطة، واستلفتت نظر القائمين على الجريدة، بطرافتها وفصاحتها، وعمق دلالتها،

ففرضت عليهم نشرها فى الصفحة الأولى من الجريدة، باسم صاحبها، وذلك لتحقيق غرضين:

**أولهما** : اجتذاب القراء، وكان رواج العدد، لتجاوب القصيدة مع أهواء الجماهير، ولتعبيرها عن الوضع القائم.

**وثانيهما** : التنصل من مسئولية التبعات التى قد تنجم عن نشرها، باعتبارها نقدا مباشراً للسلطة، ولأعضاء المجلس، ومعظمهم من الإنجليز.

**وتحسم «مذكرات بيرم»، إذ نص على أن هذه القصيدة، أرسلها إلى إحدى جرائد الإسكندرية، فنشرنها في صفحاتها الأولى موقعة عليها باسمى، ومن قبل، كانت الجرائد التى تصلها قصائدى، تنشرها تحت أسماء أخرى، وتشتمل القصيدة:**

**قد أوقع القلب فى الأشجان**

**هوى حبيب يسمى المجلس البلدى**

**ما شرب النوم من جفنى القريح سوى**

**طيف الخيال: خيال المجلس البلدى**

**إذا الرغيف أتى فالنصف آكله**

**والنصف أجعله للمجلس البلدى**

**أقول حتى لو انى فى الطريق أرى**

**قرشين ذا لى وذا للمجلس البلدى**

**كأن أمى بل الله تربتها**

**أوصت وقالت: أخوك المجلس البلدى**

وأشهر أبياتها:

**يا بائع الفجل بالمليم واحدة**

**كم للعيال وكم للمجلس البلدى**

ولما شاعت وانتشرت، صنع بيرم تخميساً أوله:

**لا تنكروا ما رأيتم فى ضنا جسدى**

**ولا فؤادى الذى أمسكته بيدى**

**بمحنتى لم يصب فى الناس من أحد**

**قد أوقع القلب فى الأشجان والكمد**

**هوى حبيب يسمى المجلس البلدى**

وهذا التخميس، الذى يرد فى مستهل الجزء الخامس، من الأعمال الكاملة لبيرم، تردد أنه طبع فى كتيب على حدة، كان يوزعه على أهالى الإسكندرية، وهناك ممن أرّخوا لبيرم، من زعم، أنه كان يبيع كتبه المحتوى على هذه القصيدة، بنفسه على المقاهى، وفى الشوارع والميادين، وفى محطات السكك الحديدية، وفى دواوين الحكومة بالإسكندرية، وأيا كان الأمر، فإننا مع عبدالعليم القبانى فى أن، القصيدة: «ماعت فى هذا التخميس، وفقدت لذة التركيز بتمطيطها» فضلاً عن أن هذه القصيدة، تبددت نتيجة لغياب لازمة «المجلس البلدى» التى كانت ترن فى الآذان مع نهاية كل بيت، وكان لتكرارها تأثير عميق، فى المعنى والمبنى معاً.

ونتيجة لنجاح المجلس البلدى، والشهرة التى واتت «بيرم آنذاك»، وأيضاً نتيجة لاندلاع الثورة سنة ١٩١٩، فإن بيرم يسعى حثيثاً لإصدار صحيفة سياسية، يعبر من خلالها عن موقفه الوطنى بلا مواربة، وبعيداً عن تسلط

أصحاب الصحف وأهوائهم، لكن الرقابة لا تسمح له بذلك، ومن ثم يستعيض عنها بإصدار مجلة سماها «المسلة».

«والمسلة» التى لم تصل منها أعداد كاملة، كانت على شكل كتيبات صغيرة، رسم على غلافها شعار يقول إنها «لا جريدة ولا مجلة» حتى لا يضطر صاحبها، للخضوع لأحكام ضرورة الحصول على تصريح بإصدارها.

ويقول هو فى وصفها «**كنت أنشرها، ولكن بعد أن صبغتها بالصبغة السياسية، وسميتها المسلة ـ لا جريدة ولا مجلة ـ ومرسوم عليها صورة مسلة مصرية رمزاً للمجد المصرى القديم، كما كنت أريد بتلك التسمية، أن تكون الصحيفة، بمثابة الإبرة تنخس البلداء المفسدين**» وكان صدور العدد الأول منها بالإسكندرية فى ٤ مايو ١٩١٩ أى بعد أقل من شهرين، من اعتقال سعد زغلول ورفاقه، ونفيهم إلى جزيرة مالطة فى ٨ مارس ١٩١٩ .

لكن «المسلة» لأمر مّا، تنتقل إلى لقاهرة بعد العدد الأول، أو بعد بضعة أعداد منها ـ على اختلاف فى الرواية ـ وتكثر التعليلات حول هذا الانتقال من الإسكندرية للقاهرة، فهل كان ذلك كما يقول «كمال سعد» لكى يكون قريباً من الأحداث، وحتى يتسنى له المشاركة فى أحداث البلاد.

أم نأخذ بكلام «محمد كامل البنا» ـ الذى يرى أن الإسكندرية لم تتسع لنشاط بيرم، فينقل جريدته إلى القاهرة.

أم نصدق بيرم نفسه، الذى صب جام غضبه، على أقرانه بالإسكندرية فى مهنة الصحافة، بل وعلى الحياة الأدبية، فى الإسكندرية بصورة عامة، حتى ليقول «إن **للإسكندرية جواً لا يعيش فى الأدب، كما أن سكانها لا يعيش بينهم الأديب، ولا المشتغل بأى فن جميل**».

ولا شك، أن هذا كان فى ثورة سخط عارم، على موقف أو مواقف ما،

من الصعب الحسم فيها وتحليلها.

والمهم على كل حال، أن بيرم انتقل بالمسلة للقاهرة، حتى كان نشره لزجل «البامية الملوكى والقرع السلطانى» وفيه تعريض عنيف بالسلطان فؤاد، مما سيقود إلى نفى بيرم عن مصر بعد قليل «فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٢٠».

هذه خطوط عامة، عن المرحلة السكندرية من حياة بيرم، إنها كانت الأساس، الذى بنيت عليه مكونات الإبداع عنده، بحيث يمكن رد سائر ما فى إنتاجه من خصائص إليها: الموضوعات والصور، والروح التى تتوثب من رشاقة، وإحساس مكتوم، خلف الدعابة والإقبال على الحياة، بحلوها ومرها.

ومع ذلك، فإن المواد السكندرية «المباشرة» فى أعمال بيرم، محدودة نسبياً نذكر منها ـ غير ما أوردنا ـ مراثيه فى «سيد درويش» ونأتى فى الجزء الثانى من أعماله الكاملة، والنصوص التى تتحدث عن «بلاجات الإسكندرية».

**الشعب نصه الجميل نايم عليك يا بلاج**

وعن الناس اللى فى ستانلى:

**يابو العيون افتينا يا حَبر المسلمين**
**الناس اللى فى ستانلى صايمين ولا فاطرين**

ومنها:

**سيدي جابر قال دول كفرة ... ولا هماش مسلمين**
**سيدي بشر يقول له أتبحبح ... وبلاش تشديد في الدين**
**الناس أهي عندي عرايا ... بملابس متحشمين**
**وترد تقول كلوباطرة ... جرى إيه يا مدهولين**

دي آشـعـة شـمس ومـيـه مين قـال بتـفطر مين
والمولى تعالى خالقنا من يومنا عريانين
افـتينا يا حبر الأمة وانت في المجاورين

ولبلاج ستانلى على وجه الخصوص، مكان بارز عند بيرم، خاصة في زجله «ستانلى فيه العبر وحموات مودرن وترللى» وفيه:

أقولك إيه ولا تقولى حموات مودرن وترللى
حموات زمان كانوا الواحدة تصوم وتصلى
ومن الحسين للمدبولى للمتولى
وعشت ورأيت حموات اليوم قاعدين بالكوم
متلطعين بمايوه بكينى فى سيدى ستانلى

وفى رمضان على البلاج:

في العام دا رمضان يسلى على بلاج ستانلى
واتجلَّى إبليس علينا بكل معنى التجلِّي

لكن الإسكندرية تبرز بصورة أعمق، في زجله «ونا اللى جيت من سيالة» ومن أجمل أبياته:

أما احنا يا إسكندرانيه طالعين جميعاً شضليه
طبيعه في الطين والميه متركبه تحت سماها
الإسكندرانى إذا صافح يغلط ساعات ويروح ناطح
وارثها عن جده الفاتح فحل الملوك اللى حماها

| | |
|---|---|
| الإسكندراني إذا تحـذلق | جلنف لكن له مبدأ |
| يغـواه لحد ما يتزحلق | في نايبه عمره ما ينساها |
| الإسكندراني إذا تحمس | يفقد صوابه ويتطلمس |
| لحد ما يروح متكربس | في نقره إبليس يخشاها |
| لكن يقوم يغسل وشه | ويروح يجيب اللى غشه |
| في خلقته ويروح ناتشه | راسين يعيش مسخه بعاهه |
| دنا اللي جيت من سياله | فيها العيال والرجاله |
| شجعان ولكن بهباله | يا نتنصر يا أكلناها |

وتجد أصداءها أيضاً في أزجاله عن «بنات بحرى» و«ريا وسكينة» إلخ، وكذلك في نثره، وبخاصة في «المقامة الكامب شيزاريه» لكن أعمق ما كتبه عنها، يتمثل في زجل رقيق عميق، مشحون بالشجن والدفء والحنين، يحمل عنوان «فراق» وفيه، يناجي مهد صباه، بهذه الترنيمة الصادحة.

| | |
|---|---|
| يا سكندريه | ياللي زينة البحر الأبيض |
| يا نور عنيه | عالشباب وعليكى يعوض |
| كتمت ناري | من نهار البين في ضلوعى |
| رأيت مواني | عن يمينى ملكك وشمالك |
| ما شفت تاني | فيه أثر من بعض جمالك |
| واللى طويته | كان علم يخفق في هواكى |
| فراق يا ريته | كان فراق الموت وعزاكى |

**وبعد:**

فهذا يعنى ما أعطت الإسكندرية لبيرم، وبعض ما أخذت منه، والامتزاج بينهما أعمق مدى.

ولكننا نوجز فنقول: إن من شهدها مدينة المدائن، وملتقى الحضارات، وأم الثقافات، فإنه يكون قد اقترب من عالم بيرم، بكل رهافته وحدسه، وبكل جاذبيته وتألقه وسحره، ومن غاص فى أعمال بيرم، فإنه يكون قد اكتشف أبعادا كثيرة، مما للإسكندرية من عطاء خصب متدفق، ومن مكانة لا تبلَى على مر السنين.

■■■

obeikandl.com